

التفكيكية الغذامية وخصوصية رؤاه النقدية

الأستاذة متلف آسية _جامعة الشلف_

(واستقر رأيي أخيراً على كلمة التشريحية أو تشريح النص والمقصود بهذا الاتجاه هو تفكيك النص من أجل إعادة بنائه وهذه وسيلة تفتح المجال للإبداع القرائي كي يتفاعل مع النص).

عبد الله الغذامي _الخطيئة والتكفير_

توطئة:

لقد ظل النقد الأدبي العربي الحديث يعاني من غربة في محيطه القومي، ومن تجاهل تام في المحيط العالمي نتيجة لفقدانه الخصوصية وامتلاكه لمنهج يتميز به من النظريات والمناهج النقدية السائدة في الآداب العالمية المعاصرة، ومنذ عقود برز لدى عدد من العاملين في هذا الحقل طموح تأسيس نظرية عربية في النقد الأدبي مع الحرص على الاستفادة القصوى مما وصلت إليه مناهج النقد الأدبي الحديث في الشرق والغرب كما ظهر في عديد من الأقطار العربية نقاداً تجاوزوا أساليب الكتابة النقدية الراهنة والخروج بالنقد العربي من منطقة التبعية التي طال أمدها ومن هؤلاء الناقد "عبد الله الغذامي" الذي يزحف به طموحه المشروع إلى الإسهام الفعلي في تأسيس النظرية الغائبة لنقد عربي حديث، ومن الإنصاف القول بأنه حقق نجاحاً كبيراً في هذا المجال¹ يستدعي البحث في التجربة الغذامية النافذة لكل ثابت وساكن، التواقة للتغيير والتطوير بما يلائم الحساسيات العربية الإسلامية في مسألة المنظومة النقدية المعاصرة بأطرها المرجعية المتباينة وحمولاتها الفكرية، وآلياتها الإجرائية المسلطة على النصوص بتتبع أجناسها الأدبية الكفيلة باستكناه مجهول النص والوقوف على دلالاته المستقلة²

وفي ضوء هذا الطرح سنسعى للكشف عن المرجعيات التي شكلت بنية الخطاب النقدي عند الغذامي باعتباره قامة بارزة في الثقافة العربية المعاصرة، وناقد له حضوره في ذاكرة الكتابة والقراءة العربية المعاصرة وصاحب مشروع نقدي قرائي مشيد على أسس علمية صحيحة ونظرة منطقية عقلانية يدعمه في كل ذلك حس إبداعي مرهف، يدفعه طموح لا حدود له في الوقوف على أسرار القول واستكناه بواطن النصوص وفك مغاليق الخطابات واستشارة حس المتلقي القراء بأدوات حدائيه وترساة إجرائية ألسنية.

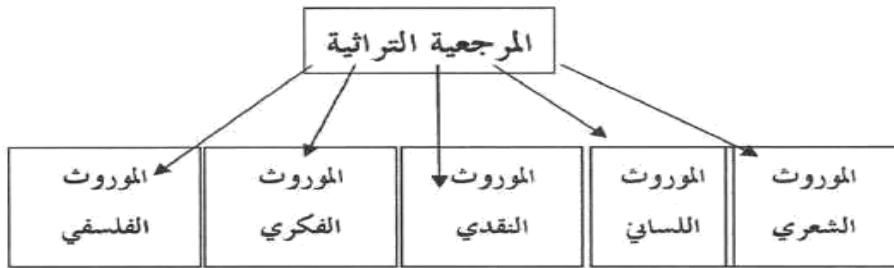
إن المشروع النقدي لعبد الله الغذامي يتميز بالجمع بين التأصيل بشمين الموروث العربي على تنوعه وتعدد، والتحديث باستلهام النظريات اللسانية المعاصرة والفلسفات الغربية³ لاسيما بعد البنيوية أو ما يطلق عليه البعض فلسفة ما بعد الحدائنة أو الحدائنة الجديدة فهو الغذامي يجمع بينها على نحو يصبح فيه الماضي أداة لاستكشاف الحاضر ويكون الحاضر فيه أداة لاستشراف

المستقبل "فالغذامي بين هذا وذاك عالم تراثي ومعاصر في منهجه ، جريء في مقارباته يتسع صدره لكل ما هو جديد لا يتنازل عن ذرة من ذرات مقومات حضارته العربية الإسلامية 4 وحتى تتمكن من الإحاطة بهذا المشروع وجب علينا استدعاء نصوصه التراثية والحدائث لرصد مكمّن مرجعيته وتصنيفها موضوعيا وزمنيا ، وبالأخص فيما يتعلق بالنظريات الفلسفية والألسنية المعاصرة (النيوية ، السيميائية ، التشريعية ، الشعرية والأسلوبية...) التي استقى منها تصور المنهج وجهازه المفاهيمي ، وكيفية توظيفها في سياقها المناسب وبما يفيد في عرض مسألة من المسائل القرائية

ويتضح لنا مما سبق أن الفعل النقدي عند الغدّامي "ينهض على ازدواجية مرجعية ، تعد في عمومها مشارب نبع منها لتقريب المفاهيم وتعميق الرؤى أثناء التحليل والقراءة" 5 وتتجلى هذه الإزدواجية في :

1_ المرجعية التراثية: بما تستفيد منه من منجزات لغوية ولسانية وفلسفية ونظريات بلاغية في شعرية استعان بها مبرزا فضل السبق لدى علماء العربية واللغويين والقلاسقة في هذا المجال 6 يبدأ أن نهل الغدّامي من النصوص التراثية لم يكم اعتبارا بل كان من قبيل الإعانة وإثراء أفكاره وهذا ما يظهر في مؤلفه الشهير "الخطيئة والتكفير" وهذا ما صرح به في قوله "وإذا لجأنا للتراث ليعيننا وجدنا فيه ما يغرينا..." وفي موضع آخر «وقد يحسن بنا هنا أن نستعين بأبي حامد الغزالي لإثراء فكرتنا» 7 ، ويؤكد تشبّهه بالتراث «هذه أفكار ليست غريبة أبدا عن تراثنا وقد هجس بها النقاد الكبار مثل عبد القاهر الجرجاني والقرطاجني ولسها من هم أقل منهم إبداعا في تصوراتهم النظرية مثل أبي هلال العسكري» 8

ويمكن تصنيف هذا الموروث حسب المخطط التالي 9:



2_ المرجعية الغربية: هي جملة التراكمات المعرفية والنظرية والأدبية والنقدي واللسانية والفكرية إنطلاقا من الإرث السوسيري وجهود الشكلانيين الروس بزعامة "رومان جاكسون" ثم مختلفات العلوم الألسنية المعاصرة المتمثلة في طروحات البنيويين المبينة على

أساس لغوي محض ، وما أفاد به أكثر بل عول عليه الى حد كبير إفرافات الفلسفة التفكيكية الدريدية وتأثيراتها في النقد الأدبي فظهر النقد التفكيكي Critique Deconstive أو التشريحي باصطلاح الغدامي10.

ونوه بأنه ليس من البين الكشف عن الخلفيات المعرفية والمنطلقات النظرية والأصول الفكرية التي استتبط منها الغدامي أفكاره إذ يصعب الوصول إليها دون النظر الى تجرته النقدية باعتبارها كلا متكاملًا ، ذلك أن مؤلفاته تشكل حلقة مردوفة موصولة يتم بعضها ببعض 11. كما يكشف لنا كتاب "الخطيئة والتكفير" وعي الغدامي المبكر بفاعلية القراءة النسقية التي ظهرت لتعلن انسداد أنظمة القراءة السياقية وترهل مشروعها متكئة على الكشوفات الألسنية الحديثة التي دشتها جهود "دي سوسير" ودعمها تراث الشكلايين الروس ثم نظريات النقد الجديد هذا بالإضافة الى المنهجيات الجديدة التي انتهضت فيما بعد بفضل تضافر تلك الجهود السابقة الذكر.

وتؤدي بنا التصورات السابقة المتعلقة بالخلفيات المعرفية المشكلة لبنية القراءة "الغدامية" الى ضرورة تحديد أهم التيارات التي استوعب منها أدواتها الإجرائية ، وتحدد في تصورنا هذه التيارات ذات مرجعية في تكوين الخطاب النقدي على المستوى التنظيري والإجرائي فيما يلي : 12



إن القراءة التشريحية قراءة حرة ولكنها نظامية وجادة وفيها يتوحد القديم والموروث وكل معطياته مع الجديد المبتكر وكل موحياته من خلال مفهوم "السياق" حيث يكون التحول وهو "إعلاء يموت وفي نفس اللحظة تبشير بحياة جديدة" 13

وبناء على ذلك فإن النص يقوم كرابطة ثقافية يبتثق من كل النصوص ، ويتضمن مالا يخصى منها. والعلاقة بينه وبين القارئ هي علاقة وجود لأن تفسير القارئ للنص هو الذي يمنحه خاصيته الفنية ، وهذا التفسير ليس حدثاً أجنبياً على النص فهو ينبع من داخله ويبعده عن كل ما هو أجنبي عنه كالسيرة الذاتية لمؤلفه وتاريخ عصره.

وعلى هذا الوتر نجد عبد الله الغذامي يقر في كتابه "الخطيئة والتكفير" أن هذه الصفات تمثل القراءة القديمة وقد حلت محلها التشريحية التي تعتمد على إقامة علاقة بين النصوص لتكشف من خلال ذلك قدرة الكاتب على مواجهة الموروث لأن كل كاتب يعمل داخل نظام لغوي وثقافي وليس بمقدور خطابه الخاص أن يهيمن على ذلك النظام فهو يمضي الى حد مع الشفرات القائمة ولذلك فإن القراءة التشريحية لا بد أن تسعى لاستكشاف ما لم يلحظه الكاتب من مداخلات بين ما هيمن عليه من أنماط لغته وما لم يسيطر عليه من هذه الأنماط" 14.

إذن فالمؤلف هنا ليس سوى اسم طبع فوق النص والمعتك الحقيقي هو النص ، وبما أن الكاتب عرض للتشريح فإن القارئ أيضاً معرض لذلك "فكل قراءة تشريحية هي نفسها مفتوحة للتشريح ، ولا يمكن لأي قراءة أن تكون نهائية ولكنها مادة للمشرح" 15.

ليعلن أخيراً أن الغرض ليس هو الهدم ، ولكن إعادة بناء ولتأكيد خصوصية تفكيكيته يقول "في هذا المشرق نجد أنفسنا في مواجهة مع مفهوماتنا الخاصة عند النقد وعند الكتابة وعند القراءة" 16

موازنة بين الفكر الغربي "التفكيكي" والفكر العربي "التشريحي" :

يعتبر عبد الله الغذامي وجه عربي بارز للرؤية التشريحية في الفلسفة المعاصرة ولكن أهم ما يميزه عن أصحاب هذا المنهج في التكفير هو كونه المثقف العربي المشبه بترائه وتاريخه الى أبعد حد، إذ لا يسعى الى تقويض المتأفزيقياً أو تفكيك نسيجها فهو لم يؤزم تلك المفاهيم في حدودها القصوى التي تأسست عليها النظرية النقدية العربية رغم استعانتها بمنظري التفكيكية وإعجابه واستثماره للمفاهيم ، فكل ما قام به الناقد هي عملية تبرير معلنة وصریحة بصلاحيه المفاهيم

والمقولات التراثية ونجاعتها الإجرائية وبالتالي عصرتها ، فقرب بذلك الباحث هذه المفاهيم التراثية بالمفاهيم الحديثة دون مراعاة الاختلافات تنظيمها المعرفي والتاريخي 17.

وهكذا قرب الدكتور عبد الله الغدامي الجرجاني من بارث BARTHES ودريدا DERRIDA وبهذا يصير النقد الجديد تابعا للنقد القديم ومؤكدا له ويصير هذا الأخير امتدادا مشروعا للنقد الجديد ، وفي هذا الاختيار يطفو في قراءة الغدامي نوع من التناقض الوجداني الصارخ لأنه معجب أيما إعجاب بتظيرات بارثودريدا. وعلى هذا الأساس كان يدعم هؤلاء نظرية الجرجاني ويؤكدونها فقد كان الغدامي يستحضر طروحات دريدا لا ليدحضها وإنما ليثبت بها الاختلاف والمختلف ويدعم بها ما جاء في التراث النقدي العربي القديم ومن هذه الزاوية ترجم الناقد مفهوم التفكيكية DECONSTRUCTION عند دريدا بالتشريح والفرق كبير بين المفهومين ، فالتشريح ANATOMIE عادة ما يقف عند سطح المادة المراد تشريحها في حين أن التفكيك يتضمن الهدم والتقويض والتأزيم لكل وحدة أو مركزية أو هوية 18.

المرجع	الملاحظات	الناقد الغربي المتأثر به	
1_ ينظر، الصوت والظاهرة جاك دريدا تر: فتحيا تقزو المركز الثقافي العربي ط1_ 2005 ، ص7	تأثر دريدا بالإرث الفينوميتولوجيليهوسرل والتي هي مواضيع فلسفية شغلت فكره خاصة مسألة الفلسفة والتكوين 1	هوسرل	الفكر الغربي (التفكيكي) دريدا
2_ ينظر المرايا المحلدة من البنيوية الى التفكيكية عبد العزيز حمودة عالم المعرفة الكويت 1998 م	موجة الشك الفلسفي الجديد. تمخضت عن تجربة العالم وفشل التكنولوجيا في تحقيق السعادة والأمان للإنسان 2	نيتشه	
3_ ينظر :يوسف و غليسي متاهج النقد الأدبي جسر للنشر ط1_ 2008	لقد ألفينا تداخل كبير بين فلسفة دريدا وهدغر الى حد التطابق ويتبدى لنا ذلك من خلال توظيفه مصطلح التدمير 3 والقول	هدغر	
4_ ينظر بشير تاويريرت			

التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر ط1 دار رسلان 2008	بشائية الحضور والغياب 4	
---	-------------------------	--

المرجع	الملاحظات	الناقد العربي المتأثر به	الناقد الغربي المتأثر به
1_ ينظر، الخطيئة والتكفير م س ص55	_ نظرية النظم _ الدلالة الصريحة _ ظاهرة السرقة الأدبية (الإحتذاء) 1	هورسل	عبد القاهر الجرجاني
2_ ينظر الخطيئة والتكفير م س ص66.	لقد تأثر الغدامي بصنيع الناقد الفرنسي رولان بارث ومن أمرات ذلك تلقيه بفارس النص وأقر بأنه لم يحظ أحد بالتريع فوق سنام نظريات النقد مثلما حضني بذلك رولان بارث 2	رولان بارث	

علاوة على ما سلف ذكره يتبدى لنا أن الفكر التفكيكي لا يهتم بالمعنى ولا بدرجة الصفر للمعنى ولا حتى بمعنى المعنى كما ورد عند الجرجاني بقدر ما يركز على الدال على حساب المدلول فالفكر التفكيكي اهتم بالأثر ، وقد ركز دريدا على ثنائية الحضور والغياب على اعتبار أن الأثر ليس حضوراً ولكن ظل للحضور"19. و بالتالي النص انفلات من كل تأويل نهائي ولكل انغلاق.

صدى تشريحية الغدامي في النقد العربي :

طرحت النظرية الغدامية مجموعة من التساؤلات والإشكالات حول المعرفة ومسلمات الثقافة التي نتج عنها ثورة عنيفة مضادة لهذا التيار الحدائبي الذي أعلن عن نفسه بجرأة وتصميم ، ولا شك أن مجتمعنا قد مر بمراحل واضحة المعالم وهي مراحل من المحافظة إلى الحدائبة ثم إلى ما بعد الحدائبة .

فبين مؤيد ومعارض لهذه الموجة التشريحية التي أرخت سدولها على الوطن العربي يقول الغدامي " ولقد حرصت على تسجيل ردود الفعل المضادة على أساس أن الفعل المضاد هو الذي يكشف عن الحس الاجتماعيما أن الرفض له أسبابه الجوهرية وبما أنه علامة على طريقة تفكير المجتمع وتصوره لنفسه وموقعه التاريخي وكلما عظمت المقاومة والرفض صار ذلك علامة على قوة المرفوض نفسه على أنه قد هدد قيمة عميقة في داخل النسق المحافظ ولقد كان كتاب الخطيئة والتكفير "هو الكتاب الذي استقطب أشد أنواع الهجوم والرفض من المحافظين والحدائبيين والتقليديين وكتب عنه مالا يقل عن مائتي دراسة وصدرت عنه كتب وأشرطة ومعارض و صار علامة على الحدائبة من جهة وهدفا للمعارضة من جهة أخرى ولذا استقطب الهجوم كجورة للتحول المقاجيء والمشكوك فيه"19.

الهوامش :

- 1_ ينظر : عبد الرحمان بن اسماعيل ، الغدامي الناقد قراءات في مشروع الغدامي التقديسي_ مؤسسة اليمامة الصحفية 1997_ 1998_صص 269_ 270.
- 2_ حمودي محمد ، تجربة الكتابة التقليدية عند عبد الله الغدامي _رسالة دكتوراه إشراف عميش العربي ، مستغاثم 2009_ص 2
- 3_ موقع الغدامي <http://alghathami.com>
- 4_ ينظر حمودي محمد المرجع السابق ص 56
- 5_ ينظر عبد الرحمان بن اسماعيل السماعيل المرجع السابق 16.
- 6_ ينظر حمودي محمد المرجع السابق ص 57.
- 7_ نفسه صص 57_ 58
- 8_ عبد الله الغدامي _ الخطيئة والتكفير مكتبة الأسرة 2006 ص 46
- 9_ عبد الله الغدامي _ المشاكلة والإختلاف قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف المركز الثقافي الغربي ط 1. 1994 ص 99.

- 10_ حمودي محمد المرجع السابق ص 57.
- 11_ نفسه ص 57_58.
- 12_ نفسه ص 127.
- 13_ عبد الله الغنامي_ الخطيئة والتكفير مرجع سابق ص 59
- 14_ نفسه ص 59
- 15_ نفسه
- 16_ نفسه ص 16
- 17_ ينظر نظر عبد الرحمان بن اسماعيل السماعيل المرجع السابق ص 47.
- 18_ نفسه ص 51.
- 19_ عبد الله الغنامي حكاية الحداثة ، ط3 المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب 2005_ ص 6.